

# قصة هيام

أحمد خالد توفيق

[www.rewayat2.com](http://www.rewayat2.com)

[www.alkoutoub.com](http://www.alkoutoub.com)

قصة هيام - الحلقة الأولى

سوف أكتب عن هيام.. هيام التي تأتي أن تتزوج لسبب يمكنني فهمه..

زجاجة المياه الغازية تظل باردة جذابة إلى أن تُشرب.. بعدها تصير مجرد زجاجة خاوية مهملة يركلها الأطفال ويغطيها الغبار، وتحملها (سعيدة) الخادمة إلى (عبده) البقال في إهمال فيتشاجر معها مؤكدا أنها أخذت خمس زجاجات لا زجاجة واحدة..

من المهين أن تعتبر نفسها زجاجة مياه غازية.. هذا يوحى بالالتهام وبأنها مجرد سلعة، لهذا كانت تختار تشبيها أقل صدمة: ديوان شعر لم يُقرأ بعد.. زهرة لم تُقطف بعد..

الزواج يفقد المرأة كل أسرارها وكل غموضها، وهو ذات ما فطن له رجال الساموراي في الماضي عندما اعتبروا أن الزواج يفقد الفارس قدراته. هيام تؤمن بهذا، ويسرها جدا أن تسمع العروض تتهاى عليها.. لو تزوجت فلا عروض.. أما اليوم فسوف يقترب منها زميل العمل هذا أو ذاك مرتبعا.. يعطي تلميحات خفيفة باهتة.. يتكلم عن الكفاح المشترك والحاجة لأن يعرضي المرء حياته مع شخص يفهمه، ثم يتجرأ ويلقي بالعرض:

.. "هل لي أن أقبل بابا؟"

سوف تنظر له كأنه أكبر غيبي رأته في حياتها، وسوف تنظر للسقف بما معناه (يا ربي).. ثم تخبره أن أباهما توفي وأن عليه مقابلة خالها وأمه. يسرها جدًا أن ترى الأمل في عينيه.. اللورد البريطاني المتألق يعطي الثعلب فرصة للفرار وأملًا، ثم يشعل سيجارة وينظر لرفاقه وكلابه ويصيح :

**واصلوا المطاردة!!**

هذا شاب مجيد، رباه أهله جيدًا وحرص على أن يتأهل حفظًا من العلم والخلق والدين وربما الوسامة... شاب ناجح بكل المقاييس.. وهي سترفضه!! ستهز ثقلته بنفسه، وبالتأكيد لن يشعر بالراحة أبدًا بعد اليوم وهو يرمق صورته في المرأة..

ربما أنا أسخف أو أفقر أو أقيح أو أغبي مما ظننت بنفسي؟؟ أمه سوف تقول له :إنه طن من الذهب يمشي على قدمين؛ لكنه لن يصدق.. لا بد لأمي أن تقول هذا...

هذه الانفعالات تعطي (هيام) لذة لا يمكن وصفها.. لذة تفوق الزواج والأسرة بكثير..



سوف يأتي الشاب ليلاً مع أبيه وأخيه وأمه، وسوف يحاول الجميع أن يكونوا في غاية الظرف.. أما هي فليسوف تراقب الفتى تبحث عن خطأ ما، شاعرة بأنها قاض على وشك إصدار حكم الإعدام.. الفتى يهز ركبته كثيراً.. إنه غير واثق من نفسه إذن.. يحك أنفه أي أنه كذوب.. مجلة (حواء) قالت: إن الدم يحتشد في أنف الكذابين فيشعرون بحكك قوي.. يا لك من وغد كذوب ضعيف الشخصية إذن!..

في النهاية تخبر خالها في حزن م

صطنع أنه: مفيش نصيب..

تحاول أمها إقناعها.. الأمهات لا يفهمن هذه الأشياء، ربما لأنهن أكثر حكمة.. سوف تمر هذه (الزهوة) -بلغة الأمهات- وتقل الفرص.. لا بد من أن تكون الفتاة ذكية تعرف أفضل الفرص وتغتتمها.. لكن (هيام) لا تريد الزواج فعلاً.. سوف تعرف الوقت المناسب والعريس المناسب يوماً ما؛ لكن ليس الآن.. مستحيل أن تتخلي عن لعبة الصيد الممتعة هذه..

يصعب معرفة اللحظة التي قررت فيها (هيام) أن اللحظة قد حانت.. يبدو أن تعب المعادن يحدث للبشر أحياناً.. وقد جاء يوم قررت فيه أن تلتين وتتهار. لعل الأمر يتعلق بالتعب فعلاً أو يتعلق بشخص (رامي)..

يقول نقاد القصة: إن رأي المؤلف لا قيمة له.. المهم ما يراه بطل القصة وليس المؤلف. هذا صحيح إلى حد ما؛ لكنني مضطر لأن أخبرك برأبي في رامي وإلا متُ كمدًا..

بصراحة أنا لا أرتاح له كثيراً.. منمق أكثر من اللازم.. أتفق إلى حد الأنوثة.. كل حركاته تمثيلية كأنه جريها مراراً أمام المرأة قبل ذلك. كيف يمكن أن تقود سيارتك بيد واحدة وكف مفتوح وأنت مضطجع في مقعدك بزواوية 150 درجة؟.. يد واحدة على المقود كأنك تمسحه من الغبار ولا تقود به، مع لفافة تبغ سوداء غريبة أنيقة في اليد اليسرى تحملها بآنافة كممثلات المسرح الغريبات.. ثم تلك الحركة التي يضم فيها يديه على صدره كأنه يتحدث من القلب..

بصراحة هو رجل يثير اشمئزازي؛ لكن من الواضح أنه راق لصديقاتها ومن المؤكد أنه راق لها جدًا..

وكانت (هيام) من الطراز الذي يمكن أن يتزوج شابًا -برغم كل مبادئها تلك- لمجرد أن تعيظ صاحباتها... صديقتها (ليلي) باهتة الشخصية من الطراز الذي خلق ليقاد، وكانت (هيام) تحبها بجنون لأنها تلعب معها لعبة المطمة والتلميذة.. تتحكم فيها كدمية مسالمة ضعيفة أقل منها في كل شيء، وكانت تتشاجر لها مع الجميع.. مع سائق التاكسي.. مع الشاب الوقح الذي دفعها في الزحام.. مع البائع الذي يغالي في السعر.. الخ.. كانتا رجل يدافع عن امرأته...

(ليلي) كانت معها في المكتب عندما دخل (رامي) يسأل عن تكلفة شحن مجموعة طرود لألمانيا.. نظرت له (ليلي) طويلاً، ثم قالت همسا وهي تتنهد:

" لا خواتم "

" عم تتكلمين؟ "

" غير متزوج .. "

نظرت هيام الى يده، وللحظة بدت لها كبحر يعج بالفرص.....

### قصة هيام - الحلقة الثانية



قالت (ليلي) بصوت مبجوح:

- "إلى أين تذهب تلك الفرص الدسمة؟.. من يظفر بها يا ربي؟"

في سرها قالت هيام:

- "تذهب لي يا بلهاء.. أنا التي تظفر بها!!"

على كل حال كانت قد قررت أنه يكفيها شيء واحد.. أن يتقدم لها هذا الفتى الساحر وتعطيه موعداً، ثم تأتي يوم السبت لتعلن في المكتب:

- "هذا الفتى الوسيم الثري.. لقد تقدم لي الخميس الماضي لكنني رفضته.. لا أحب الرجال الذين يستعملون المنديل كثيراً.."

وسوف تجن الأخباريات غيظاً.

على كل حال كانت توقعاتها دقيقة جداً.. لقد بدأ (رامي) يتردد على المكتب كثيراً.. أكثر مما يتحمله الموقف في الواقع؛ فمن الصعب أن يتحمس أحد لشحن الطرود بهذا الشكل. ثم بدأ يتعمد الكلام معها، والكلام كان كله عن الطرود -وهو موضوع شائق كما ترى- ثم بدأ

يتطور.. إنه أهلاوي ومباراة الأهلبي الأخيرة حديث الساعة.. ماذا؟.. هل تحبين كاظم الساهر مثلي؟.. غريب هذا..

الآن يمكننا أن ننسى كل ما عرفناه عن هيام.. لقد صارت تسأل نفسها في كل ليلة:

- "متى يتقدم هذا المعنود؟.. هل يحسبني سأنتظر للأبد؟"

لكنها لم تكن متأكدة من رد قلبها لو تقدم.. هل ترفضه؟.. الآن لم تعد واثقة..

عرفت أنه وريث ثري جدا، وأنه رجل أعمال، وأنه وحيد..

رأت سيارته ورأت كيف يدخن..

لم يكن بهز رجله أو يحك أنفه كثيرا..

من الواضح أنه عريس ممتاز..

قال لي (عباس) وهو يراجع ما كتبت:

- "لا بأس.. الحلقة الأولى جيدة.. أشعر أن شيئا سيحدث"

قلت له في غيظ:

- "طبعا سيحدث شيء، لو لم يحدث فلماذا أكتب أصلاً؟"

- "لكن حاول ألا تفسدها" ..

- "سأحاول" ..

(عباس) لا يكف عن إهداء النصح القيمة لي.. لولاه لتحولت إلى غير كوني منذ أعوام.

عندما غادر (رامي) الدار، سألتها أمها في لهفة:

- "هيه؟.. ما رأيك؟"

لأذت بالصمت ولم تقل شيئاً.. وأدهشها هذا الضعف من نفسها.. هذه الرقة الأنثوية تعتبرها هي شيئاً مخجلاً، ثم إنها لم ترحم ولم تتسل عليه بما يكفي..

قال خالها وهو يحشو فمه بطعام العشاء:

- "سمعتة طيبة في عالم الأعمال؛ لكن لا أحد يعرف شيئاً عن أهله.. لا شيء على الإطلاق..  
جاء من الخارج ليقدم في مصر ويحكي قصة طويلة عن أهله الذين فروا من التأميم وبقوا في الخارج".

قالت أمها رأيها الدائم في أن العريس الممتاز هو العريس الذي يكون (خالق رأسه و عادم ناسه)..

أي أنه بلا أهل، أما عن سبب جاذبية حلاقة الرأس؛ فليس لأن الأم من المعجبين بموضة Skin head ؛ ولكن لأنه لابد من قافية تتناسب مع (ناسه).

هكذا تم الزواج..

وهكذا سقط الطائر المراوغ الحرون في شباك الصيد الوسيم بعد سنوات من التحليق..

أما التساؤل عن الأكثر حظاً (رامي) أم (هيام)؛ فأمر يتوقف على نوعك: لو كنت من العرسان الحالمة الذين عيشت بهم؛ فانت تجد (رامي) محظوظاً فعلاً، أما لو كنت مثل (ليلي) لحسدت (هيام)

على كل حال لاحظت (هيام) أشياء غريبة لم ترحها في (رامي)؛ لكنها لم تعلق عليها..



لماذا ينام على ظهره دانما وعيناه شبه مفتوحتين؟..  
لماذا تصحو في منتصف الليل فلا تجده جوارها؟...  
أين يذهب؟..



يقول إنه يحب الهواء الطلق.. لكن أين يشمه بالضبط؟  
في ذلك الفندق الذي أقاما فيه في شهر العسل، كان من المستحيل أن تخرج ليلاً، ولا يوجد  
شاطئ تمشي عليه بالمعنى الحرفي للكلمة...  
عندما عادا كانا يسكنان في منطقة منعزلة في أحد التجمعات السكنية.. هناك أصوات غريبة  
ليلاً..  
ذئاب وربما سلعوة.. ليس أفضل مكان يمشي فيه المرء وحده ليلاً...  
لكنها لم تستطع قط أن تتصيد اللحظة التي يخرج فيها ليلاً.. دانما تكون نائمة...  
قال لي (عباس) في ضيق:

- "التيمة المعروفة.. زوجي غريب الأطوار.. أنا أشك في أنه ليس كما يبدو.. ألا تتوي أن تغير  
هذه الأحداث النمطية؟"

قلت له وقد بدأ الدم يتصاعد لرأسي:

- "يا أخي لا تكن مزعجاً.. اصبر.. اصبر.."

### قصة هيام - الحلقة الثالثة



ليلة غريبة هي تلك التي قضتها مع أقربه في الفيوم ...

لم يكن قد حكي لها عنهم قط، وهي تعرف يقينًا أنه بلا أقارب.. لكن الصورة تتغير، وهو يحدثها عن أقارب قدامى له.. مجموعة غريبة الأطوار من البشر، وأنا أعني ما أقول.. عندما لا تتكلم ططاط (علياء) أبدًا وتظل ترمقك في ثبات، وططاط (ميرا) التي تضع الإشارات ليحجب معظم وجهها لأنها لا تتحمل الشمس، فلا ترين سوى عينيها.. ثم ذلك الرجل الغريب المدعو (عزمي) الذي لا يكف عن شرب أشياء من زجاجات صغيرة، ويؤكد أنها دواء.....

عندما وضعت (ناتسي) -قريبته- يدها على يد (هيام) شعرت بأنها باردة كالثلج.. قاسية .. صلبة.. يمكنها أن تنتزع قلب أسد من ضلوعه بلا جهد يذكر...

الجو لم يكن ودودًا برغم أن (رامي) بالغ كثيرًا جدًا في التظرف والتمثيل..

كان يطوح رأسه للخلف ضاحكًا، ويثب في الهواء متظاهرًا بالحيوية...

في نهاية اليوم قالت طاطم (علياء) بصوتها الخشن الأنفي الذي يذكرك برجل عجوز يرتجف:

"شد حيك يا (رامي).. نحن نريد الذرية.. أنت تعرف هذا جيدًا" ..

لم تكن دعوة طيبة.. كان هذا أمرًا صارمًا لا راد له، وتقسّم (هيام) على أن (رامي) وقف في مكانه بشيء من الرهبة، واحمرت أذناه قليلاً...

" طبعًا يا طاطم" ...

كانت مندهشة من تأثير أقرابه عليه، ولماذا لم يظهرها في الصورة إلا بعد الزواج.

عندما جاء المساء أعد لها (رامي) الطعام.. جلب الكثير من عصير البرتقال وجلس معها على ضوء الشموع.. كانت تفكر: أن هذا ليس عدلاً.. الفتاة تقبل المخاطرة وتتزوج رجلاً لا تعرف عنه إلا أقل القليل.. ثم يكون عليها أن تواجه هذا كله وحدها، وأن تدفع ثمن فرارها هذا. ماذا تعرف عن (رامي)؟.. لا شيء سوى اهتمامه بالطرود المرسلّة لألمانيا، وأنه وسيم منمق...

بالتأكيد كانت في وضع أفضل عندما كانت عزباء تملّي شروطها، كقائد يستعرض صفوف الجنود من الخطاب...

فجأة بدأ النعاس يلعب بعينيها.. تتأهبت ولم تعد تشعر إلا بـ (رامي) يقنّدها للفراش وهي لا تكف عن التناوب.. الأرض عالية جدًا ولينة.. من قرر فرش الشقة بالمراتب الهوائية؟ لابد أنه مجنّب.....



هنا نهض (عباس) محنفاً وألقى بالورق على الأريكة وقال:

"ها نحن أولاء قد انتقلنا لقصة (طفل روزماري) مع أننا بدأنا بقصتك الخاصة.. الزوج يعمل مع عبدة الشيطان بغرض المجيء للكون بابن للشيطان من امرأة بشرية.. زوجها متواطئ يا أستاذ.. متواطئ...!! هذا واضح وكذلك هو يدس لها المنوم في عصير البرتقال.. بل من الممكن أن تسوء الأمور أكثر ويكون زوجها هو الشيطان نفسه!!"

نهضت وبدأت أجمع أوراقى أمام عينيهِ المندهشتين، فسألنى في غباء عما هناك.. قلت له:

"أرى أن تقوم أنت بالتأليف.. فديك موهبة ممتازة في هذا الصدد.."

جذبني من ذراعي وقال ملخاً:

"أنت لا تقبل النقد.."

"وأنت لا تقبل الفن"

"فقط عندما يكون جيداً.."

"أنا لا أؤمن بموضوع تنوق البيضة لمعرفة إن كانت فاسدة أم لا.. لابد من التهامها كاملة أولاً.. إن تسممت كانت فاسدة وإلا فهي جيدة.. فقط احرص قليلاً ودعني أكمل."

هكذا جلس مغتافاً وبحث عن الصفحة التي كان يطالعها...

هيام الآن حامل

إنها مندھشة من كل هذه المهارة التي تلاقيها أنوثتها؛ فهي عاجزة عن اعتبار الأنوثة مجداً.. ليس لها سوى بطن منتفخة وقدمان متورمتان وأنفاس قصيرة متلاحقة وحجاب حاجز يوشك

على أن يخرج من فمها.. الركلات... الركلات من الداخل لا من الخارج..

الطبيب الذي فحص بطنها بالسونار اتسعت عيناه رعباً..

"هل هناك مشكلة ما؟"

تجمعت قطرات العرق على جبينه، برغم تكييف الغرفة القوي، وقال:

"أشياء غريبة في الصورة.. أعتقد أن هذا ناتج عن التزييف.. أجسام في السائل الأمنيوسي تعطي صوراً غريبة.. ربما الغازات.. ربما... فقط يجب أن نعيد هذا الفحص بعد شهر."

لكن (رامي) جن غيضاً عندما عرف أنها خضعت للفحص بالسونار، وقال لها:

"أشياء كهذه لا تتم دون علمي.. ربما عرض السونار الجنين للخطر"

"لكن السونار لا يؤذي.. إنه آمن تماماً"

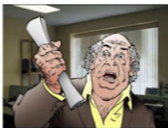
"هكذا يقول الأطباء اليوم، ووما قريب سوف يعرفون أنه خطر داهم.. في طفولتي كانوا يفحصون الأجنة بالأشعة السينية ويصحبون لا خطر هناك"

هكذا اضطرت لأن تصمت وتقبل ألا يفحصها طبيب طيلة فترة الحمل....

والجواب عن مخاوفها كان قريباً جداً..

جداً...

### قصة هيام - الحلقة الرابعة



ولد أحمد في ليلة من شهر ديسمبر..

ليلة باردة اتهمر المطر فيها مدرازا، وكان طفلاً جميلاً بلا تشوهات ...

لكنها لم تكن سعيدة به. ثمة شيء خطأ...

رامي (كذلك لم يكن سعيداً به برغم أنه أطلق عليه هذا الاسم ليكون) أحمد رامي (على اسم الشاعر الكبير).

كان رامي يتصرف بنوع من اللهفة والقلق كأنه كان ينتظر لحظة بعينها وقد جاءت...

لاحظت هيام أن ابنها صموت..

لا يبكي مثل الصبية ولا يعوي..

بل إنه يكون أكثر راحة في الظلام...

هذا أثار رعبها بشكل خاص...

لم يكن يلعب مع رفاقه..

بالواقع لم يكن له رفاق أصلاً..

قال (عباس) ضاحكاً:

"لقد انتهت عقدة روز ماري وبدأت عقدة (النذير).. داميان.. الطفل الشيطاني.. ربما مسحة من (لعنة المذعوب) كذلك؛ حيث يلمس الرضيع ماء الجعد فيغلي، لأنه يحمل بذور داء الاستذئاب.. فقط أنت جعلت الجو عربياً.."

قلت له في وقار وهدوء:

"لن يحدث هذا.. صدقتي..."

هنا اتسعت عيناه رعباً..

وطوى الورق كآته عصا غليظة ونهض صاخحاً:

"لحظة..! الرعب الموجه لوجهة خطأ!.. هذا هو!.. أنت حاولت أن تجعلني أشك في (رامي) (والطفل منذ بداية القصة.. هل تعرف ما أفكر فيه؟... هناك كان شيطاني واحد هو (هيام)!.. سوف تدرك هذا في النهاية وينقلب كل شيء!"

قلت في برود وأنا أضع ساقاً على ساق:

"لو فعلت هذا لقلت إنني أكرر نفسي.."

- "إذن ما الذي سيحدث؟... ماذا؟"

- "أكمل القصة"!!



الآن (أحمد) الصغير في العاشرة..

تجلس (هيام) في الشرفة ترمقه وهو يلعب في حديقة الفيلا.

للمرة الأولى تنظر لنفسها من الخارج وتدرک أنها سعيدة..

لا تعرف الظروف السحرية التي جعلتها تغير خطة حياتها وتتزوج بدلاً من التسلية على الخطاب..

لا تعرف كيف وثقت بشخص لا تعرف عنه شيئاً؛ لكنها اليوم تعرف عنه الكثير..

ظلت طيلة هذه الفترة تتوقع الشر، لكن لم يحدث شيء..

تنتظر في كل يوم مصيبتها القادمة، لكن لا مصائب..

اليوم تدرک أنها أضاعت عشر سنوات ثمينة من حياتها بانتظار انهيار كل شيء، وانكشاف السر الرهيب الذي يخفيه زوجها..



لكن لا سر هناك..

الحياة لم تكن بهذا السوء ..

سوف يكبر الصغير وتشيوخ هي، وسوف تذهب معه لروية فتاة أخرى تتسلى برفض الخطأب ..

وستقول له معزية وهما ينزلان الدرج:

"انسها.. صدقتي.. الموضوع لا يستحق" ..

لكنه لن ينسى بسهولة.. هكذا دورة الحياة الأبدية..

وابتسمت ورشفت رشفة أخرى من عصير البرتقال الذي أعده لها زوجها..

هتف (عباس) في بلاهة:

"ماذا؟... تم؟... لم يحدث شيء!!"

قلت وأنا أضع الأوراق في ملف:

"-الم تفهم؟... بلي، لم يحدث شيء.. هذه قصة عن فتاة اسمها (هيام) تزوجت وأنجبت طفلاً وعاشت حياة سعيدة... هذا كل شيء.."

احمر وجهه كالطماطم وقال:

"-رامي ليس شيطاناً ولا عابد شيطان؟.. ابنها ليس ابن الشيطان؟.. البرتقال لم يحو منوماً؟.."

الجولات الليلية لا سر وراءها؟.. الأسرة ليست أسرة شيطانية؟"...

قلت في ثقة:

"لا تتكر أنني خيبت كل توقعاتك ولم يحدث شيء مما خمنت.. هذا هو سر قوة هذه القصة.. أول مؤلف يكتب قصة لا يحدث فيها شيء على الإطلاق، وبالطبع لن يزعم أحد أنه قرأ القصة من قبل أو خمن ما سيحدث فيها.. وإنني لأشكرك على الشيك الدسم الذي كتبه كاجر لي."

راح يفكر بعض الوقت، ثم نهض ليقتادني إلى باب الخروج...

هناك صافحني وهو يتلع ريقه، وقال في ارتباك:

"سامحني.. إن الصدمة كانت قوية.. والنهاية غير متوقعة فعلاً.. آخر نهاية يمكن لإنسان أن يخمنها مهما حاول.. أعتقد أنني سأشرها.. إن القصص التي لا يحدث فيها شيء على الإطلاق ليست بدعة.. يسمونها (اللا رواية) Antiroman (وهناك نماذج قوية لدى فوكنر وفورستر؛ لكن البداية كانت توحى بشيء مثير كما تعلم وحسبت أننا.. (احم).. إنني مرتبك ولا أعرف ما أقول"....

وفتح فمه ليعبر أو يقول أكثر؛ لكنني ابتسمت لأريحه..

واستدرت منصرفاً وهو ما زال ينظر لي في بلاهة باحثاً عن شيء يقال...

تمت بحمد الله